الخيال في أدب مصطفى صادق الرافعي

إعداد

د عزة عبد اللطيف عامر

أستاذ مساعد نقد وأدب عربي حديث –قسم اللغة العربية–كلية الآداب – جامعة بني سويف

الإستشهاد المرجعى:

عزة عبد اللطيف عامر (2023). الخيال في أدب مصطفى صادق الرافعي. - حولية كلية الآداب. جامعة بني سويف. - مج 12:ج 2. - ص ص 795-836

المستخلص:

يقوم البحث على محورين رئيسين؛

يتناول المحور الأول سمات الخيال عند الرافعي فيتوقف عند المباحث التالية :

1--وضوح امتزاج الخيال بالمنطق العقلي، وقد وضح ذلك من خلال كتابات الأديب ، وكذلك قي اختياره لموضوعاته .

2-وضوح تأثير الثقافة الإسلامية ، وقد تناول البحث أثر الثقافة الإسلامية من خلال الصور وأسلوب الكتابة

أما المحور الثاني:

1-فيتناول دور القارئ في أدب الرافعي؛ ويتناول المباحث التالية: المفارقة، ويقصد بها مفاجأة القارئ بغير المعتاد من المعاني والصور ، وكذلك المفارقة في مجال الكتابات القصصية،

2-مخاطبة القارئ بشكل مباشر خاصة وأن كثيرا من كتاباته نشرت في البداية في الصحف أو بشكل غير مباشر بتوجيهه لتبني رأي محدد

3-استخدام الحجج العقلية ممتزجة بالخيال فيما يخص الكتابة المنهجية

الكلمات الدالة : الرافعي – الخيال – المفارقة – الثقافة الإسلامية – القارئ

مدخل:

"امتياز الرافعي بقلبه هو سر البيان فيما تداوله من معاني الشعر والأدب، وهو سر حفاوته بالخواطر ومذاهب الآراء "هكذا قدم د. محمود شـــاكر "الرافعي " في حديثه عن حياة الرافعي ، وعلو قامته ، وذلك ما دفعني للقراءة حوله وقراءة أدبه

ترك مصـــطفى صـــادق الرافعي (1880-1937) بصـــمة مؤثرة في تاريخ الأدب العربي ، خاصـة في مجال النثر ؛لما يتميز به قلمه من رصـانة وجزالة شـهد بها معاصـروه ومتابعو أدبه ، حتى قيل إنه مالك زمام اللغة والبيان.[1] ينتمي الرافعي لأسـرة لبنانية الأصـل من " طرابلس الشام " ، وقد هاجر كثير من أفراد عائلته ،و كان أبوه رئيسا للمحاكم الشرعية وحرص والده على العناية بتحفيظه القرآن الكريم وألحقه بمدرســة دمنهور الابتدائية حيث أتم

[1] رجع البحث في الجانب التاريخي لحياة الرافعي لكل من :

أ- د. شوقي ضيف الأدب العربي المعاصر في مصر دار المعارف 79 ط2 ص 242-251

ب- محمد ســعيد العريان حياة الرافعي ط 2 الهيئة العامة لقصــور الثقافة القاهرة 2004 ص331وما بعدها

دراسته الابتدائية ، ولكن سرعان ما أصيب بالتيفود في عمر السابعة عشرة وهو ما أثر فيه ؛ حيث خلَّف فيه علة دائمة فأصـيبت حنجرته وكذلك ضـعف سـمعه الأمر الذي عزله عن العالم ، ولكن كأنما هاجمه هذا المرض ليعزز اسـتعداده الانطوائي ويؤيد اعتزاله الناس ، ويركب في خياله أجنحة تحلق به بعيدا بعدما فقد جزءا مهما من أجهزة الاستقبال وهو السمع ، ولذا اعتمدت معظم صوره على البصر والتأمل العقلي ، وقد يكون هذا سببا في أن بعض صور الرافعي تجهد المتلقي في فهمها وتحليلها. وكانت صدمة مرضه سببا في عدم إكماله تعلمه ، ولكنه في الوقت نفسه كان نهما للقراءة ذكيا. في الاستفادة مما يقرأ وهو صاحب موهبة أدبية متميزة ساعدته على نظم الشعر في بداية حياته الأدبية فكانت له قصائد يعبر فيها عن حبه الأول في "إيتاي البارود" عام 1902 وأشاد بها كل من البارودي والمنفلوطي والشيخ محمد عبده ، كما نشر قصائد متفرقة في مجلتيً" فتاة الشرق " و "أبولو"، وبدت النزعة الكلاسيكية في شعره من حيث التمسك بالقيم والحث عليها وكذلك بدت الصياغة في ثوب قديم .

ولكنه سرعان ما وجد ضالته في النثر بقلم الشاعر وروحه (وذلك بعدما أعلنت الجامعة المصرية عن جائزة لكتاب في "أدبيات اللغة العربية "، فعكف على الأدب العربي يدرسه ولم يلبث أن نشر الجزء الأول من كتابه "تاريخ آداب العرب عام 1911)[1]ويبدو أن هذه الخطوة كانت بداية تحوله إلى النثر بشكل كامل، فكتب (حديث القمر) كما كتب رسالة الأحزان ، وحي القلم ، ومن أشهر ما كتب قصيدة "اسلمي يا مصر " كما احتدمت المساجلات بينه و بعض معاصريه مثل د. طه حسين وكذلك الأستاذ العقاد وقد نبَّه الأستاذ سعيد العريان إلى وضوح صفة شخصية في الرافعي أثرت في أدبه ؛ فهو ليس اجتماعيا ولا ينتمي بفكره لجماعة ولا يحب أن يلتزم بما يليق وما لا يليق ولكنه (يمثل في نفسه عالما

[1] د. شوقي ضيف المرجع السابق ص 243

منفردا يسير في نهجه إلى الهدف المؤمل على وحي الفطرة)[1]وكان من نتاج هذه المعارك الثقافية كتاب (تحت راية القرآن) في الرد على د. طه حسين حول كتابه (في الشعر الجاهلي) كما كتب أيضا (على السفود) ردا على الأستاذ العقاد .

حظي الرافعي بكثير من الدراسات النقدية والتحليلية التي تناولت أدبه بالدراسة والتحليل ، كما حظي بمن يتتبع سيرته من الجانب التاريخي مثل كتاب أ.محمد سعيد العريان عن (حياة الرافعي) ، و كتب د. مصطفى الشكعة "الرافعي وإعجاز القرآن الكريم "، وكتب د. عبد العزيز المقالح (مصطفى صادق الرافعي حياته وأدبه) ، إضافة لما كتبه د. شوقي ضيف عن أديبنا ضمن كتابه (الأدب العربي المعاصر في مصر).ويتناول هذا البحث جانبا واحدا لم يأخذ حقه من الدراسة وهو الخيال في أدب الرافعي وكان الأستاذ الدكتور عمر الدسوقي قد تناول الموضوع بشكل سريع في مجلة الرسالة ،وهو ما حفز لتناول الموضوع بشكل أوسع ،فقد تميز الخيال عند أديبنا بصفات تجعله متفردا سواء أكان ذلك في الصور الكلية التي يستخدمها أم في التركيبات اللغوية التي توحي بصور جزئية تخدم الفكرة العامة . وسيركز البحث على النصوص الأدبية من خلال القراءة النقدية لأدب الرافعي والتركيز على الخيال عنده ، مع الاعتراف مسبقا بأن الخيال أوسع من أن تُغطى جوانبه في بحث محدد بإمكانات النشر، ولذلك سيمر البحث سريعا عند بعض الأدوات التي من شأنها أن تثري الخيال مثل الوصف وقد أجاد أديبنا في استخدامه ،والصور والمفارقة في التعبير ، ولذلك لم يُعنون البحث ب " الوصف عند الرافعي ، أو الصورة في أدب الرافعي" على اعتبار أن "الخيال " أشمل وأعم وقد تناولهما البحث على اعتبارهما من مكونات الخيال .

[1] محمد سعيد العريان المرجع السابق ص325 وقد تناول الكاتب مؤلفات الرافعي مجتمعة ، وأرخ لها

مقدمة :

(إن الخيال روح الشعر) هكذا وصف الرافعي الخيال ، وقد أشار د. جابر عصفور إلى تصور الرافعي للشعر فرآه كالحلم الهادئ يشكل الجديد من معطيات سبق إدراكها[1] ، ولا يبتعد كثيرا عن الحقيقة ، وهو ما يعني أن الأدب بشكل عام يرتبط بما تراه النفس وتشعر به فيعبر الأديب عن رؤيته من خلال أدواته الفنية المختلفة ، ولسنا في حاجة لتأكيد أهمية دور الخيال في العملية الإبداعية ، فقد أخذ تعريف الخيال مساحة كبيرة من الدراسات النفسية والأدبية ، ذلك لأنه ملكة فطرية لولاها لظل الإنسان حبيس إمكانات الواقع وقوانينه ،وهو نشاط مميز للإنسان ولولا الخيال لما كانت كل المخترعات التي نقلت البشرية بخطوات متسارعة للتغيير والتطوير .

أما الخيال الأدبي فهو سمة أدبية رفيعة تميز كل الأنواع الأدبية على اختلافها، حيث عُرِف بأنه طاقة مبدعة يمكنها اختراع عوالم جديدة ممكنة أو متصورة تتمكن من التأليف بين المتضادات وتمزج بين الواقعي المحسوس ، والروحي المتصور[2]، وقد اختلف مفهوم الخيال بداية من أرسطو إلى وقتنا الحاضر حيث تحددت دلالات المصطلح ابتداء من القرن الثالث وقد وصلت إلى أقصى مراحل النضج الفني عند حازم القرطاجني ق7 هـ، وقد أفاد النقد والبلاغة العربية بما ذهب إليه أرسطو في حديثه عن الخيال وعلاقته بالإدراك الحسي ، فمذهبه أن الخيال حركة يسببها الإحساس ويرتبط بصور مادية (ولكنا بالتخيل نرى

[1] د. جابر عصفور قراءة النقد الأدبي الهيئة المصرية العامة للكتاب 2002 ط1 ص39

[2] انظرد. عبد الحميد شيحة مع فريق عمل موسوعة الأدب والنقد (الأدب والنقد والتاريخ الأدبي) المجلس الأعلى للثقافة القاهرة 99 ص49 تعريف الخيال

الصـــورة في غيبتها كما في حال النوم)[1] وقد أرخ د. محمد غنيمي هلال لمفهوم الخيال في العصـر الحديث فتحدث عن "كانت" الفيلسـوف الألماني الذي عرف مفهوم الخيال وأكد على خطورته وأهميته فهو يرى أن الخيال تفكير بالصـور بطرق فنية تختلف من مذهب فني لآخر [2]حيث تعددت المذاهب النقدية من كلاسـيكية ورومانسـية وواقعية وطاف بنا د.غنيمي هلال مع الوجودية وغيرها من الاتجاهات الفكرية والأدبية، وقد أخذ مصـــطلح الخيال والتخييل ، وغيرها من هذا الجذر اللغوي الكثير من الدراسات النقدية من ذلك تعريف الخيال بأنه (استحضـار صـور لم يسـبق إدراكها في جملتها إدراكا حسـيا كتصـور بقرة تتكلم أو قرد يقهقه)[3]، وقد توقف الكتاب المشـار إليه إلى تقسـيم الخيال إلى وصـفي وتصـويري وتفسـيري اعتمادا على صلة العالم المحسوس بالصور المتخيلة ،وأرى أن الخيال وسيلة تعبيرية غايتها جمالية ، من خلاله يتفرد الأديب ويصـــل لصـــورة غير مســـبوقة ، وأميل للاتفاق مع الرأي القائل بأن التصـنيف والتقسـيم المنطقي يثقلان على طبيعة الأدب ، وهو ما دعا شـاعرا مثل البحتري بأن يضيق بمثل هذه المعايير فيقول :

الشعر لمحٌ تكفي إشارتُـــه وليس بالهذر طُولت خطبُه

كَلفتمونا حدودَ منطقـــــكم والشعر يغني عن صدقهِ كذبُه

ولم يكن ذو القروحِ يلهج بالمنطق ما نوعـهُ وما سببـــه[4]

---

[1] د. سـعد مصـلوح حازم القرطاجي ونظرية المحاكاة والتخييل في الشـعر عالم الكتب 2010 القاهرة ص128

[2] د. محمد غنيمي هلال النقد الأدبي الحديث نهضة مصر القاهرة 79 ص388

[3] د. حامد عبد القادر دراسات في علم النفس الأدبي المطبعة النموذجية القاهرة ط 2 ص33

[4] المرجع السابق ص165

فقد تمرد الشاعر على هذه التصنيفات المنطقية التي وضعها النقاد وعلماء النفس ، فللأدب قوانينه الخاصة التي تميزه عن الكلام العادي ، لذا تتناول الصفحات التالية الخيال في أدب الرافعي بناء على قراءته في مؤلفات مختلفة ، منها ما كتب للصحافة ومنها خواطر عابرة ، ومنها أيضا ما كتب ردا على معاصريه ،ونتوقف عند المباحث التالية بين قسمين رئيسين نتناول في الأول طبيعة الخيال عند الرافعي ، ونتناول في المبحث الثاني القارئ في أدب الرافعي :

أولا طبيعة الخيال عند الرافعي

أ- غلبة النزعة العقلية

ب- تداعي المعاني

ج-وضوح تأثير الثقافة الإسلامية

د-استخدام القالب القصصي

ثانيا :القارئ في أدب الرافعي

أ-المفارقة

ب -مخاطبة القارئ ج-الحجة العقلية والقارئ

أولا – طبيعة الخيال عند الرافعي:

حين نعيش مع أدب الرافعي نراه كما لو كان حديث نفس لنفس ، فهو عميق الفكر ، ويتحدث لقارئه كما لو كان يهمس له ، ولا يتحدث في جماعة ، وقد لاحظ مؤلف "حياة الرافعي " [1] ذلك فقال عنه إنه كان انطوائيا – ويبدو أن ذلك بسبب فقدانه حاسة السمع التي باعدت بينه والعالم، وقد كان يؤمن بتناجي الأرواح وتنادي الموتى وأيضا كان يؤمن بالسحر

[1] سعيد العريان حياة الرافعي ص331

والعرافة وهي كلها عوامل تدفع الخيال للتحليق، كما تنادي في القارئ مزاجا خاصا وطقوسا تحبذ الانعزال في التلقي لالتقاط المعنى الذي يريده الأديب. وفي السطور التالية نتناول أهم السمات المميزة للخيال عند الرافعي :

أولا –أ غلبة النزعة العقلية ووضوح المنطق:

من أوائل السمات التي يمكن التقاطها عند تناول أدب الرافعي غلبة الجانب العقلي ويبدو ذلك في كثرة التحليلات والمقارنات ، وهو يؤكد ذلك فيقول :(واها لهذا القلب الذي أحمله ، فإنما هو عقل فيلسوف خلق على شكل القلوب ، فهو يأتيني من كل شيء بشيء غيره ، حتى تلك التي أحبها جاءني منها بهذه التي أبغضها ، وبقي مع ذلك يتفلسف في حبها) ولكنه عاد ليبرر هذه الظاهرة فيقول : (ولكنه سامي النزعة قار كالصبر مجتمع كالإيمان ، يقول لكل حاسة أو عاطفة أرادت أن تتهضم فيَّ أو تستذل ..: يا سرحة الوادي لا يزال هناك جبل لا ينحني لعاطفتك)[1] فقد كان حريصا على إظهار قوة العقل مقابل اندفاع العاطفة في مواضع كثيرة .

وقد يكون من الغريب ونحن نتحدث عن الخيال أن نتحدث عن غلبة الجانب العقلي، فمن البديهي في مجال الخيال أن يتحرر الأديب بعض التحرر من قيود العقل ومن كثير من قيود الواقع ، ولكن كما سنرى في الأمثلة التالية – سنجد ميل الأديب في صوره التي يختارها إلى عقد المقارنات ، والتحليل حتى وهو يتحدث عن عاطفته تجاه محبوبته :

(لم تحيرني المتناقضات ولا المتشابهات ولا ضقت بأسباب الفكر فيها ، فإن ذلك الحب جعل فيَ عقلين لا عقلا واحدا ؛ أحدهما يقرني في هذه الدنيا ، والآخر ينقلني إلى ثانية دنيا الناس جميعا ، ودنيا امرأة واحدة ، دنيا السموات والأرض ، ودنيا قلبي).. ويظل

[1] الرافعي رسائل الأحزان ص105

مسترسلا في المقارنة بين عالمه الواقعي في حين تتعقد كل البسائط مع محبوبته :(أحدهما قوي ، فلو اجتمعتْ عقولُ أعدائه في عاصفةٍ واحدةٍ لكان وحدَه عاصفةً تلفُ بها لفاً ، والآخر ضعيفٌ تمرضه الابتسامةُ الواحدةٌ مرضا طويلا . ذلك يكسرُ النفسَ كسرا ويرُضها رضَ الهشيم)[1] ،فقد رسم صورتين في عالمين: صورة له في عالمه فيشعر بالقوة وهو قادر على مواجهة عواصف الأرض مجتمعة، وصورة أخرى مناقضة لمهزوم تمرضه ابتسامة المحبوبة، ويكسره بعدها ، وهو ما يذكرنا بصورتي أبي فراس الحمداني الفارس الذي لا يذاع له سر .

فنحن أمام مقارنة بين عالمين يصور في أحدهما حياة متزنة تتسم بالوقار بين الناس ، وعالم آخر يعيشه بخياله مع المحبوبة ، وفي ذلك العالم لا يجد غضاضة من أن ينهزم طائعا .

ويظل الرافعي مع الصورة السابقة يسترسل في معانيها حتى يصل لوصف حالة البغض بين الحبيبين ‘فيشبه البغض بالذئب :(إنما الذئب ناب وظفر وسورة وحش يعتري أكيلته فيسطو بها فيذهلها عن نفسها.. أما البغضُ فذئب الدم: يساورك سورة الحُمَى فإذا هو شعلة طائرة في عروقك لا تدعُ منك موضعاً إلا مستْه ولا تدعُ منك موضعا إلا نقعت فيه مثل نابِ الأفعى)[2] وظل يقرب من صورة الذئب مقارنة بالبغض، الذئب ينهش بأظفاره وأنيابه، والبغض "ذئب دم" فالدم يسري في العروق ولا يترك موضعا إلا أمرضه مادام يحمل ذلك السم، وقد برع الرافعي في التركيبات التي تجعل القارئ يتوقف ليتأمل ما ترمي إليه هذه التعبيرات .

–وتمتلئ كتابات الرافعي بالمقارنات العقلية ذات المنطق الواضح وهي مقارنات طريفة وإن كان يغلب عليها التحليل العقلي الذي قد يعيق استرسال العاطفة –وإن كانت

[1] رسائل الأحزان ص 33،34

[2] نفسه ص35

جديدة متفردة –و قد تصـــدم القارئ لابتعادها عن المألوف، فمثلا في الفقرة المختارة التالية شبَه المرأة فقال عنها إنها مركز الدائرة ، تمثل مركز الكون (إذا كنت شاعرا فأضللت نفسك فنشدتها طويلا وقلبت عليها آفاق النفوس وأفلاك القلوب فإنك لن تصيبها إلا في نفس امرأة جميلة يجعلها مهندس الكون مركزا للدائرة التي تتســع بأقطار نفســك ذاهبة بكل قطر إلى جهة من أماني الحياة)[1] فهو تشــبيه " هندســي " إن جاز التعبير ، اســتخدم فيه الدائرة والقطر والمركز ، والمهندس ،وهي كلها تعبيرات هندســية قد تكون جديدة ، ولكنها في الحقيقة جافة لا تحرك العاطفة ولا تخاطبها ولكنها جديدة. وفي موضع آخر شبّه المحبوبة بحرف التسويف بمعنى أنها لا تفي بوعودها:

(وبقيت لويز تتربص به الأجل فكانت له كحرف التســويف) ، ويشـــبه المحب بحرف الجر والمحبوبة بالمجرور : (فلما استوت فتنتها صار منها كحرف الجر لا يريد إلا أن يكون الجار والمجرور متعلقين)، ويصف فتاة بائسة في قصيدة بعنوان " على الكوكب الهاوي "، فيصفها كالسطر في الصفحة وأنها كالصفر[2] :

ممدودةٌ كالسطرِ في صفحةِ المنى وأطمارُها تبدو كما شُطِب السطرُ

فإن يك أهلُ الأرضِ أرقامَ حاسبٍ فتلك وراء العالمين هي الصفر

أرى الصورة طريفة وجديدة، مستقاة من عالمه هو (عالم الكتب) يرى عالم الأمنيات كتابا ، وأن هذه الفتاة لا حظ لها في هذا الكتاب ، فهي كالســطر ، ولكنه– لســوء الحظ – ســطر مشـــطوب ، وزاد فتحول إلى عالم الأرقام : فوجدها صـــفرا ، ولكنه ليس من نوع الأصفار التي تعطي قيمة للأرقام ، فهو صفر من (وراء العالمين) فلا قيمة له .فنحن أمام

[1] رسائل الأحزان ص 25

[2] كتاب المساكين ص 160

صـفحات كتاب كُتب مرة بالحروف ، وأخرى بالأرقام وفي الحالين كانت صـاحبة الصـورة متواضـعة الحظ . فقد اسـتقى الرافعي الصـورة من عالمه هو وكما يقال في علم النفس إن المعاني تأتي في الأذهان تبعا للتجارب والمعارف ومواضع الاهتمام [1] ولكن يبدو أن وضوح المنطق في صـور الرافعي هو ما دعا د. نعمات أحمد فؤاد بأن تصـف كتابات الرافعي بالغلو في المنطق وتصـفه بأنه (مفتوح العين يلاحظ كل شـيء وهذه الملاحظة تظهر في تشـبيهاته)[2] وأرجعت ذلك إلى طبيعته القلقة وأنه مولع بالإغراق والإغراب وتقصـد بذلك أن بعض بعض تشبيهاته وإن كانت تتميز بالتفرد إلا أنها تبتعد عن العاطفة .

أولا .ب- تداعي المعاني:

والمقصـود بذلك أن فكرة تسـتدعي أختها القريبة منها فتتوارد المعاني على الذهن لوجود علاقة بينهما من التشـابه أو التضـاد، أو الاتفاق في الزمان أو المكان، وهي ظاهرة لها بالغ الأثر على الخيال الأدبي وعلى الصـور التي يختارها الأديب ، و من السـمات الواضـحة في أدب الرافعي أن نجد الصـورة تتولد منها صـور أخرى ، وذلك مثلما رأينا في حديثه عن المحب والحب ثم انتقل للحديث عن البغض الذي رآه ذئبا ينهش فريسـته وأفعى تنشر سمها.

ولنتأمل خواطره في "بين الأزرقين "السماء والبحر، فنراه يرسم لوحة بديعة مرسومة بالكلمات، ثم ينتقل لبعد فلسفي بشكل سلس لا يشعر القارئ معه بابتعاد الفكرة الفلسفية عن اللوحة التي بدأ بها فهو انتقال ناعم دون "مطبات فكرية " -إن صـح التعبير -:(ما أجمل الأرض على حاشية الأزرقين البحر والسماء ، يكاد الجالس هنا يظن نفسه مرسوما في لوحة إلهية ، نظرت إلى هذا البحر العظيم بعينيً طفل يتخيل أن البحر قد مُلئ بالأمس ، وأن

[1] علم النفس الأدبي ص46

[2] د. نعمات أحمد فؤاد دراسة في أدب الرافعي دار الفكر العربي ط2 63 القاهرة

السماء كانت إناء له فانكفأ الإناء فاندفق البحر ، وتسرّحت مع هذا الخيال الطفلي الصغير فكأنما نالني رشاش من الإناء)[1]فهي صورة جميلة استخدم فيها الألوان والخيال بتناغم انسيابي رائع ، ثم يأخذ قارئه بالتدريج لفكرة فلسفية أبعد ،مفادها أن النفس حين تلقي بأعبائها ترى الدنيا من منظور مختلف ، وكأن الأرض غير الأرض :(في جمال النفس يكون كل شيء جميلا إذ تلقي النفس عليه من ألوانها فتنقلب الدار الصغيرة قصرا لأنها في سعة النفس لا في مساحتها هي ، وتعرف لنور النهار عذوبة كعذوبة الماء على الظمأ ..في جمال النفس ترى الجمال ضرورة من ضرورات الخليقة ويكأن الله أمر العالم ألا يعبس للقلب المبتسم) (لا تتم فائدة الانتقال من بلد إلى بلد إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور ، فإذا سافر معك الهم فأنت مقيم لا تبرح)[2]

فهو يتنقل من فكرة التأمل في جمال الطبيعة إلى فكرة الجمال الداخلي الذي يحيل البيت قصرا ، ثم إلى فكرة ضعف تأثير المكان إن لم يتخلص المسافر من الهموم فمن شروط التمتع بجمال المكان أن يتخلص المسافر من أعباء الحياة حتى لا تلاحقه فكأنه لم يسافر ، فهو ينتقل من فكرة لفكرة بسلاسة، ولا يشعر القارئ معه بثقل الفكرة الفلسفية بل هي من نسيجها وقد أضفت عمقا جديرا بالتأمل. ويشيع ذلك في أدب الرافعي حيث تتولد الأفكار بعد الصورة الأولى، دون تعنت في لي عنق الحديث بل قد يدهش القارئ إذ كيف وصل بين البداية والنهاية.

[1] وحي القلم ص45

[2] نفسه

أولا–ج–وضوح تأثير الثقافة الإسلامية على صوره:

انبرى قلم الرافعي مدافعا عن قضـايا الإسـلام فقد كتب " الإشـراق الإلهي "، " وحي الهجرة "، "الإسراء والمعراج "،"الإنسانية العليا " وكتب عن إعجاز القرآن الكريم إضـافة إلى ذلك سـنلاحظ تأثر الخيال في كتاباته بالثقافة الإسـلامية بشـكل واضـح ، ومن البديهي أن تؤثر ثقافة الأديب والبيئة وكذلك الزمن الذي يعيش فيه على الصـــور التي يعبر بها عن أفكاره .

ولا يعني ذلك نفي تأثره بثقافات أخرى واتجاهات فلسفية مختلفة ، فقد كان واسع الثقافة ، يتميز بقدرته على الاسـتفادة مما يقرأ ، و نثبت هنا وضـوح التأثر باللون الإسـلامي بشـكل خاص ، وقد انبرى قلمه للدفاع عن القضـايا الإسـلامية ، كما أنه كان مهتما بالكتابة في الفكر الإسلامي ، وسنجد أن كثيرا من موضوعاته ذات طابع إسلامي ، كما أن كثيرا من أفكاره متأثرة بالثقافة الإسلامية :(في الإسلام قوة كتلك التي تُوجِد الأنياب والمخالب في كل أسد ، قوة تخرج ســـلاحها بنفســـها ، لأن مخلوقها عزيز لم يوجد لُيأكل)[1] ، و يحدثنا عن "الرجل الإلهي" وكما نرى فالعنوان بداية خيالي ، هذا الرجل هو إنســـان كأنما نظر إلى قوله تعالى في الحديث القدسـي : "عبدي أطعني اجعلك ربانيا .." ، فيرسـم صـورة هذا الرجل وقد ترفع عن الشـهوات وهزم مخاوفه ، كما ارتفع على فكرة الحياة والموت ،:(أيها الحي: إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك : أي الحياة في ذاتك الداخلية وقانون وجودها وكمالها ، فإذا اســـتطعت أن تخرج للأرض معنى سماويا من ذاتك فهذا هو الجديد دائما في الإنسانية وأنت بذلك عائش في القريب القريب من الروح، وأنت به شـيء إلهي) [2] ويتحدث عن المسـجد الذي يجمع الناس من عوالم مختلفة فتذوب الطبقات بين الناس ، ولو حاول صـــاحب المنصـــب أن يختال أو أن يفكر في

[1] وحي القلم 559

[2] وحي القلم ص 252ج 2

غير التواضع لله وحده لما استقام له الأمر : (ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيت الفقير إلى جانبك توبيخا لك ، ونظرت إليه ساكتا وهو يتكلم في قلبك وشعرت بالله من فوقكما واستعلنت لك روح المسجد كأنها تهم بطردك منه ، وخيل إليك أن الأرض ستلطم وجهك إذا سجدت عليها ، وأيقنت من ذات نفسك أن لست هناك في دنياك وليس صاحبك في دنياه ، وإنما أنتما هناك في إنسانية ميزانها بيد الله وحده ، فلا تدري أيكما الذي يخف وأيكما الذي يثقل)[1]تصور الصورة التي رسمها الأديب الأرض وقد تمردت على الساجد إن داخله شعور الاستعلاء ، فصارت توبخه وتلطم وجهه ، بل وتطرده ، وتنطق نفس الفقير الساكت إلى جوار الغني وكأنما توبخه على استعلائه ، فالكل في حضرة الله واحد يخرج كل مُصَلٍّ من فرديته إلى روح الجماعة ، ويختلف ميزان التقدير فلا يدري الواقفون أيهم أثقل ميزانا . ورسم صورة أخرى في المقال نفسه للخطيب وقد رآه تاجرا :(صعد الخطيب المنبر وفي يده سيفه الخشبي يتوكأ عليه ، فما استقر في الذروة حتى خيل إليّ أن الرجل قد دخل في سر هذه الخشبة ‘ فهو يبدو كالمريض تقيمه عصاه ، وكالهرِم يمسكه ما توكأ عليه ، ونظرت فإذا هو كذب صريح على الإسلام والمسلمين كهيئة سيفه الخشبي في كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها) فقد رأى أن ذلك السيف الخشبي الذي يمسكه الخطيب أوحى له بزيف الحالة العامة ؛ حيث السيف خشب عاجز عن القيام بوظيفته ، وأيضا الخطيب متواضع الفكر ،ولذلك امتزج الخطيب بالسيف حتى تشابها وهو ما عبر عنه

بقوله :(إن الرجل قد دخل في سر هذه الخشبة) ومزج بالفعل بين الرجل والخشبة حتى يخيل للقارئ في النهاية أنهما واحد (علاقة الذل والضعة والتراجع والإضحاك ...أفي

[1] وحي القلم ج2 ص229

سيف مصنوع من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة وذلة الحياة ؟)[1]، ويتحدث عن القبور في حديث آخر استوحاه من زيارة المقابر فيقول :(أما والله إنه ليس أعجب من السخرية بهذه الدنيا من أن يعطى الناس ما يملكونه لإثبات أن أحدا منهم لا يملك من الدنيا شيئا)[2]، وتحدث عن الاشتراكية حين تحدث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم –حين أنكر على ابنته ارتداءها سوارين من فضة قد يحتاج المسلمون إلى ثمنها ، فيخاطب الأديب الاشتراكيين (تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم ، إن مذهبكم مالم تحيه فضائل الإسلام وشرائعه كالشجرة الذابلة تعلقون عليها الثمار تشدونها بالخيط ..كل يوم تربطون ولا ثمرة في الطبيعة)[3] فهو يصور زيف المبادئ وكأنما يرى شجرة جدباء لا تثمر، فيحرص أصحابها على أن يعلقوا الثمار عليها لتبدو للعيان وكأنما هي مزدهرة ، ولكنها لا تلبث أن تقع ، فهي مقارنة بين المبادئ حين تكون أصيلة يُعمل بها وتؤثر في السلوك ، وحين تكون شعارات لا أثر لها ولا تطبق بشكل عملي على أرض الواقع .

ولا نجد تأثير الثقافة الإسلامية على الموضوعات ذات الطابع الديني أو الفلسفي فقط ، ولكن تشيع هذه الروح في كثير من كتاباته في الموضوعات المختلفة .

أولا –4 .الخيال القصصي:

مما يميز الخيال عند الرافعي أيضا أن له إمكانات التأليف القصصي ، وكما نعرف فالخيال القصصي له سمات مختلفة عن بقية الأنواع الأدبية ، فإذا كان الشعر يعتمد على تدفق العاطفة والفكرة والحس الموسيقي إضافة للصورة ، فإن الخيال القصصي "خيال مركب " إن صح التعبير ؛ حيث ينشئ الأديب عالما متخيلا بكل تفصيلاته، وقد يعتمد في بعض منه على

[1] نفسه 136

[2] وحي القلم ج2 ص 136

[3] وحي القلم ،درس من النبوة

بعض معطيات الواقع ، وتتحرك الشخصيات وتتصارع وتتحاور فالقصة وسيلة جيدة لنقل الأفكار وتباينها ، حتى أن كثيرا من الشعراء يكتبون قصائدهم بالشكل القصصي لأنه شكل يتيح التعبير عن مشاعر الأديب بشكل متفرد ،حيث يمكّن الشعر القصصي الأديب من إظهار الأفكار والأحاسيس بشكل تحليلي ، وقد يمكنه من تصوير موقف[1] ، فالشعر حينما يلجأ للقالب القصصي فإنما يكتسب شمولية تبعده عن الخطابية والذاتية .وفي تناول أدب الرافعي نجد الكثير من الكتابات ذات الطابع القصصي ؛ حيث يبني عالما يحتوي على شخصيات وتدور بينهم أحداث وحوار ، وفي الأغلب لا تكون القصة مكتملة ' ولكنه يستعين بالقالب القصصي لبث فكرة يرغب في طرحها ، من ذلك حديثه في " أطفال الشوارع ":

لن نجد في الصورة أحداثا متنامية كأحداث القصة ، ولكننا أمام صور بارعة ومقارنات موحية ، فقد تميز أسلوب الرافعي بالقدرة الوصفية ، وأنه قادر على ملء كل مشهد بشكل دقيق فيبهر قارئه بدقة المعنى وسعة الخيال :

(على عتبة البنك نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد يلتحفان جوا رخاميا في برده وصلابته، الطفل " متكبكب " في ثوبه كأنه جسمٌ قُطِع وركِمت أعضاؤه فمال على خده، والفتاة كأنها من الهزال رسمٌ مخططٌ لامرأة ، بدأها المصور ثم أغفلها ، إذ لم تعجبه ، كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول على الزهرة :إنها صارت قشا ، نائمة في صورة ميتة ، أو كميتة في صورة نائمة)[2]

فقد صنع عالما أدخلنا إليه من وحي خياله الذي ينقل للقارئ ما يراه ، ولا مانع من أن يرى الحسي فيشبهه بالمعنوي أو العكس ، وهو قادر على توصيل رؤيته وشعوره للقارئ، فصَور

[1] د. محمد غنيمي هلال مرجع سابق ص429

[2] وحي القلم ص73 أحلام الشوارع

الصبي كما لو كان قد قُطِع –وقد أعطى الفعل (قُطِّع) ظلال القسوة إضافة لصورة رسمها حين تراكمت أعضاء الصبي فوق بعضها لا تأخذ حيزا من الأرض ، أما صورة الفتاة فكانت أكثر تركيبا وتعقيدا : فرآها كما لو كان المصور قد بدأ في رسم صورة لفتاة ,ولكنه تركها زاهدا فيها فأكمل الفقر وأمسك القلم وكتب تعليقا علي الصورة غير المكتملة ليذكر القارئ بشكل الزهرة الذابلة التي صارت في النهاية قشا فقد قرب الأديب بين صورة الصبي والفتاة في الواقع بصورة متخيلة كادت أن تصرخ من الفقر والبؤس ، وقد استخدم لذلك أدوات مختلفة ، من تحريك لأشياء تجريدية مثل الفقر ، أو استخدام أفعال توحي بالصورة المطلوبة كما استخدم اللغة الوصفية دقيقة الملاحظة و اختيار تركيبات موحية مثل :"طفل متكبكب" حيث يوحي بشدة تكوم الطفل اتقاء قسوة البرد ، وهو وصف أظنه لم يستخدم إلا في القرآن الكريم في قوله تعالى " فكبكبوا فيها هم والغاوون "الشعراء 94 ، وصورة الفتاة (رسم مخطط لامرأة) فهو يعبر عن تهميش الفتاة التي هي واقع بائس في القصة ،فيراها كما لو كانت صورة مرسومة غير مكتملة حيث زهد الرسام في فنه ،فصارت قشا كما تصير الزهرة الذابلة.

فأرى عبقرية القصة هنا في تفرد الوصف، لأنه استخدم الوصف أداة ينقل بها الصورة ويدخل القارئ في العالم المتخيل، ثم يصعِد الأحداث من خلال الوصف ، والمعروف في مجال القص أن تصعيد الأحداث عادة ما يلازمه استخدام السرد الذي تزيد فيه الأفعال لأنه يحتوي على الحركة التي تنقلها الأفعال في اللغة ولكنه ينقلنا من مشهد لآخر من خلال الوصف ، فكأن الوصف هنا هو ما يقوم بتصعيد الأحداث نيابة عن السرد ، و لنر مقطعا آخر :

(انسكب ضوء القمر على وجهها وبقي وجه أخيها في الظل كأن في السماء ملكا وجّه المصباح إليها وحدها إذ عرف أن الطفل ليس في وجهه علامة هم وأن في وجهها كل همها وهم أخيها)[1]

[1] نفسه

فقد أدخل في نفس القارئ انتباها للطفلة بشكل خاص حين رسم وجه الطفلة وقد وقع تحت ضوء القمر ثم يعرفنا بالسبب فالطفلة تحمل مالا يحمله أخوها ، وهو هنا يأخذنا لتصعيد الأحداث ولكن من خلال الوصف أيضا ، فقد استخدم اللغة الوصفية التي نقلت للقارئ ما تعانيه الطفلة في سبيل تحمل مسئوليتها ومسئولية أخيها .(وكان رأس الطفل إلى صدر أخته وقد نام مطمئنا إلى هذا الوجود النسوي الذي لابد منه لكل طفل مثله .. ونامت هي ويدها مرسلة على يد أخيها كيد الأم على طفلها .. يا إلهي نامت ويدها مستيقظة)[1]

أرى أن في كل تركيب صورة وشعورا ينقله الأديب باحتراف؛ فقد نقل أمان الطفل وهو نائم إلى صدر أخته ،أما يدها فمستيقظة تشعر بأخيها وتحتضنه وتدافع عنه إذا لزم الأمر , ومع براعة الوصف واحترافية الصورة إلا أننا لا نجد قصة بالمعنى الفني ، فالوصف هنا أداة فنية ماهرة مكّنت الأديب من نقل فكرته، بل وصعدت الأحداث واجتذبت عاطفة القارئ نحو الطفلين. ولكننا لن نجد أحداثا متنامية وسنجد صورة أخرى معاكسة حيث يكمل قصته بصورة البنك حيث ينام الطفلان عند عتباته ، فنجد الأديب قد وضعنا أمام المتناقضات التي يهوى الوقوف عندها ؛ فيصف البنك بصورة معاكسة ؛ فيه الفخامة ولكنه يمثل احتكار رأس المال :(ظهر لي بناء البنك في ظلمة الليل من مرأى الغلامين أسود كالحا كأنه سجن أُقفل على شيطان يمسكه إلى الصبح ، ثم يفتح لينطلق معمرا ،أي ؛ مخرَبا .. أو هو جسم جبار كفر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه)[2] فقد مثل البنك هنا احتكار رأس المال وصورة الظلم الاجتماعي ، وقد استخدم لرسم هذا الرمز اللون الأسود الذي بدأ بظلمة الليل ، واستخدم لمبناه اللون الأسود الكالح ،وصورة السجن المغلق على شيطان ، والشيطان هنا ذلك التقسيم الطبقي

[1] نفسه ص75

[2] نفسه 75

العنيف الذي لم يسمح لمثل هذين الطفلين بالاستمتاع ببعض من الحقوق الآدمية، ففي الصورة سواد مطبق.

وتمضي الصور الوصفية التي تضع القارئ في قلب المقارنات التي يرسمها الأديب فيتبنى اتجاه الأديب، الذي ينقلنا لحديث متخيل بين الطفلين يعكس أحلامهما وتظهر من خلاله الأضداد ، فقد تخيل الطفل وهو يقول لشقيقته وقد وقفا معا أمام باب السينما ليشاهدا روادها لا ليشاهدا أفلامها :

(انظري ها هم أولاء يرى عليهم أثر الغنى وتُعرف فيهم روح النعمة وقد شبعوا، إنهم يلبسون لحما على عظامهم أما نحن فنلبس على عظامنا جلدا كجلد الحذاء ، إنهم أولاد أهليهم ، أما نحن فأولاد الأرض ..لهم عيش وموت ولنا الموت مكررا) فهي مقارنة صارخة بين حياتين وتستوقفني العبارات (نلبس على عظامنا جلدا كجلد الأحذية) ، (أولاد أهليهم) ،(نحن أولاد الأرض) ثم العبارة الأخيرة (لهم عيش وموت) وهي طبيعة الحياة أن يكون فيها العيش والموت ، ولكنهم يعيشون الموت مكررا كل يوم ،ومع كل معاناة . لن نجد في هذه الصورة القصصية الشكل الفني الاحترافي للقصة مع ما فيها من أحداث وشخصيات وحوار أيضا، والأديب قادر على التأثير في عاطفة قارئه من خلال اللغة الوصفية وهو يمتلك الخيال القصصي القادر على إقامة عالم متخيل يشبه العالم الواقعي يهدف إلى عرض أفكار الأديب وتأملاته حول المجتمع، وبالطبع لو حكمنا المنطق الفني لقلنا إن الحوار غير مناسب للشخصيات المرسومة لامتلائه بالحكمة التي تفوق منطق الأطفال، ولكننا ندرك أنها فكرة الكاتب وقد اختار الشكل القصصي ليعرض من خلاله وجهة نظره، وسنتوقف عند بعض تعبيراته الأدبية المعبرة:

-(تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفل المسكين ومن شعوره بهذه اليد خف ثقل الدنيا على قلبه)

- (لم يبال إن نبذه العالم كله مادام يجد في أخته عالم قلبه الصغير)

-(وقفت أشـهد الطفلين وأنا مسـتيقن أن حولهما ملائكة تصـعد وملائكة تنزل ،وقلتُ هذا موضـــع من مواضـــع الرحمة فإن الله مع المنكســـرة قلوبهم ولعلى أن أتعرض لنفحة من نفحاتها ولعل ملكا كريما

يقول : وهذا بائس آخر فيرفني بجناحه)[1]

ولهذه القصـة نهاية يكمل بها درامية الأحداث وذلك حين يسير الشرطي فيلحظ الطفلين ويرتاب فيهما فتتوقف أحلام الطفلين بعد أن ركل الشـــرطي الطفل (فوثب قائما واجتذب اخته وانطلقا عدو الخيل من ألهوبِ السوط) فكأن الأحلام أيضا من الممنوعات أمامهما .

وهكذا كان الرافعي قادرا على أن يكتب القصـــة وأن يجري على ألســـنتها ما شـــاء من الخواطر والتأملات الفكريـة وقد يتخيل الجمـاد متكلمـا وقد ينطق الحيوان، ولكنهـا في الأغلب شـخصـيات لا تنمو فهي ذات بعد واحد ينقصـها عنصـر المفاجأة [2]، ولا أظن أن الرافعي كان معنيا بكتابة قصـة قدر رغبته في تقديم فكرته بالشكل الأقرب للقارئ تماما مثلما يستعين الشاعر بالأدوات القصصية لتقديم تجربته .

وقدم الرافعي الشـكل القصـصـي التاريخي ونأخذ مثالا في تناوله شـخصـية الحاكم بأمر الله بعنوان "تاريخ يتكلم " فبدأ بطريقة قصـصـية مشـوقة حيث رأى أنه يحلم وأدخله حلمه في زمن غير زمنـه ومكـان بعيد عن عـالمـه ، بل قدم لهذا الحلم بـأنـه كـان نـائمـا وهو مغموم :(أمســيت البارحة كالمغموم في أحوال ثقيلة على النفس ..وبات الليل يقظان معي فانقلب التعب نوما وجاء من النوم تعب آخر وقذفت إلى عالم الأحلام في قنبلة تسـتقر بي حيث تريد لا حيث أريد)[3]، تبين بعد ذلك أنـه زمن الحـاكم بـأمر الله ، ويـدخلنـا عـالمـه بكثير من الترقب لامتزاج

---

[1] نفسه

[2] د.غنيمي هلال المرجع السابق ص529 في حديثه عن الشعر القصصي

[3] وحي القلم 202

المغامرة بالتاريخ ، حيث تبدأ الشخصية الأولى وهي شخصية المؤلف مندهشة حيث يمر (مولانا العالي) والأديب لا يبدي ما يبدي الناس من ولاء وتبجيل يصل للعبادة مما عرضه للاحتكاك المباشر بالحاكم بأمر الله ثم يتحاور معه ويعرض بعضا من أعماله التي سجلها التاريخ عليه من ادعاء الألوهية وأنه قد أشاع أنه أتى ليؤيد الله به الإسلام وأمر بسب الصحابة (إنه يمقت هذا الدين القوي كما يمقت اللص القانون)[1]، وتخيل أنه كتب عشرة مجلدات لخص كلا منها في فقرة تنتهي بحكمة مثل حديثه عمَّن قتلهم الحاكم : (ولقد أحياهم التاريخ ، أما هم فقتلوه في التاريخ ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين ، أما هم فجاءوه باللعنة من المسلمين جميعا)[2] وتعليقه على أمر الحاكم بأمر الله على سب الصحابة (أخزاه الله أهي رواية تمثيلية يلصق الإعلان عنها في كل مكان ؟ لو سمع المساجد والمقابر والشوارع تقول أخزاه الله) وهكذا لخص حياة الحاكم بأمر الله في فقرات ، أطلق عليها مجلدات ، وتوقف عند الأكثر وضوحا في حياته معلقا ومحللا ،فقد امتلك الأدوات الروائية التي صنع من خلالها عالما متخيلا من الشخصيات والأحداث وأجرى على ألسنتها الحوار ، ليبرز وجهة نظره وتحليله لأفعال كثير من الطغاة على مر التاريخ .وقد كتب الكثير من الكتابات التي تعتمد على الشكل القصصي مثل "بين خروفين " ، حديث قطين " ، "اليمامتان " ، ونلاحظ أنها جميعا تعتمد على الثنائيات حتى يتسنى له عقد مقارنات تحمل التأمل والحكمة في شكل قصصي محبب .

[1] نفسه

[2] نفسه ص 202، 203

ثانيا : القارئ في أدب الرافعي :

لا شـك أن للقارئ ركنا أصـيلا في العملية الإبداعية ، حيث يحتوي النص على ركنين رئيســين ؛ الأول: فني يرتبط بالمؤلف ، والثاني: جمالي يحققه القارئ من خلال إدراكه للنص ،ومن خلال فهمه له، كما يوضــع عامل البيئة العامة المحيطة بالتلقي في الحســبان [1]، وإذا كانت الدراسات النقدية التي تهتم بالقارئ وتسلط الضوء على دوره في العملية الإبداعية حديثة فلا ينفي ذلك أن الأديب يضــع القارئ في حســبانه منذ البدايات الأولى ، وتهتم الصــفحات التالية بتناول موقع القارئ في أدب الرافعي .

تناول النقاد مصطلح " التخييل " و حظي المصطلح بالكثير من الدراسات في البلاغة العربية القديمة وحتى الآن وقد عرفه حازم القرطاجني بقوله : (أن تتمثل للســامع من لفظ الشاعر المخيل ، أو أسلوبه ونظامه ، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها أو تصــور شــيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة من الانبســاط أو الانقباض)[2]، وقد نجد الكثير من التعريفات التي تتناول مصطلح التخييل ، وإن اختلفت تفصيلاتها لكنها تشترك في إلقاء الضوء على دور المتلقي في العملية الإبداعية من ذلك: أن (التخييل هو التأثير الذي يحدثه الشــكل الأدبي في المتلقي بحكم مكوناته الخيالية)[3]، وهذا المعنى هو ما توقفت عنده حيث أرى التخييل – خاصــة وأن الكلمة على وزن "تفعيل " تحمل معنى الحث على التخيل ، ولا يضع الأديب نفسه في مقام أعلى من القارئ وكأنه "يفهمه " ما التبس عليه ، ولكن الأديب

---

[1] تفصــيل ذلك في بحث بعنوان : التفاعل بين النص والقارئ ت الجيلالي الكدية فولفانج أيزرفي نظرية التلقي التفاعل بين النص والقارئ –مجلة دراسات أدبية لسانية عددرقم 7 ديسمبر 92

[2] حازم القرطاجني منهاج البلغاء تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس 66 ص98

[3] د. جابر عصفور قراءة النقد الأدبي ص 123 مرجع سابق

يستخدم الخيال والصورة على أنهما نسيج أصيل من نتاج الإبداع الأدبي ، وكأنه والمتلقي والنص الأدبي يمثلون مثلثا واحدا يعلو أو يخفق تبعا لتوافق العناصر الثلاثة .

ويعد ابن سينا من أوائل إن لم يكن أول من أدرك العلاقة بين الفن الشعري وظواهر علم النفس حين قال إن الشعر كلام مخيل حيث رأى أن مجال الشاعر " النفس " وليس العقل ، ويقصد بالتخييل : مخاطبة القوة المتخيلة في النفس ولذلك فالشعر الجيد بهذا المعيار هو الذي يحاكي المدركات الحسية التي تختزنها قوة الخيال ، وقد تأثر حازم القرطاجني بابن سينا وأضاف إليه ، فهو يؤمن مثله بأن يكون للمعنى وجود ذهني من حيث إدراكه، ورأى أن الفيصل في الشعر هو التخييل وأن الشاعر المجيد يتمتع بقدرات خاصة تعينه على التخييل الشعري[1] وعلى جعل المتلقي معه في الصورة نفسها التي يعبر عنها ، ويهمنا هنا ونحن نتناول أدب الرافعي أن نتوقف قليلا عند القارئ وكيف أنه يمثل مرتكزا رئيسا عند الرافعي خاصة وأن كثيرا مما كتب كان قد نشر في البداية في الصحافة في صورة مقالات ، و في المبحث التالي نتوقف عند عدة أدوات استخدمها الرافعي لجذب قارئه:

أ- استخدام المفارقة التي تدهش القارئ وقد تخلف توقعاته

ب- مخاطبة القارئ

ج- الحجة العقلية والقارئ

ثانيا :أ- المفارقة في خيال الرافعي:

المقصود بالمفارقة : كسر توقع القارئ وجعله يعيد النظر في الصورة ، وقد نجد مثالا في ذلك من خلال الآية الكريمة : " ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منها الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط

[1] انظر المرجع السابق د. سعد مصلوح حازم القرطاجي ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر في حديثه عن إضافات حازم القرطاجني لنظرية التخييل وتقسيم القوى الشاعرية أقساما مختلفة من 167- 174

من خشـية الله وما الله بغافل عما تعملون " البقرة 74 فقد شـبهت الآية القلوب بالحجارة دلالة على شدة قسوتها، وهي الصفة المعروفة في الحجارة، لكن في قوله تعالى : "أو أشد قسوة " – ثم في تفصـــيل ذلك من صـــور للحجارة نتبين كيف أن هناك أنواعا من الحجارة تلين وتهبط خشـية لله ،أو تخرج منها المياه –رمز الحياة – ففي هذا التفصـيل مفارقة تدعو السـامع لإعادة تأمل الصـورة وإعادة تشكيل المعنى .وعلى ذلك يؤكد "ويلز" من أن المعنى الذي لا يذكر بشكل مباشر، ويستنتج من بين السطور يحتل مكانا أكبر في مخيلة القارئ مما لو كان قد ذكر [1]

ثانيا أ– 1 تشبيه الحسي بالمعنوي:

وتشـــيع المفارقة عند الرافعي حيث يفاجئ قارئه بتركيبات وتشـــبيهات جديدة، من ذلك استخدامه لتشبيهات غير متوقعة كأن يشبه الحسي بالمعنوي ، والأصل في البلاغة التقليدية أن نشـبه الغامض غير الشـائع بالأوضـح والأقرب وذلك مثلما صـور امرؤ القيس ثقل الليل بأمواج البحر على سـبيل المثال فالبحر بأمواجه الثقيلة أوضـح صـورة من ثقل الليل على نفس الشاعر، وفي تناولنا للخيال عند الرافعي سنجد شيوع الانتقال من الحسي المعروف إلى المعنوي غير الشـائع ، ، فقد كانت رياضـته التأمل وإمعان النظر، وكان ذلك منتقدا في البلاغة التقليدية وقد نستشـهد بانتقاد "ابن رشيق " البيت التالي بسبب تشبيه الشاعر للمادي بالمعنوي ، والمادي هو الأقرب :

وله غرّة كلون وصال فوقها طرة كلون صدود

(التشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضـح، فيفيد بيانا، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك)[2] فالتشـــبيه هنا من وجهة النظر البلاغية التقليدية يصـــنف تحت باب "غير ذلك " على حد تعبير النص المقتبس ، وذلك لأن الشـــاعر قد انتقل من المعلوم المادي

[1] التفاعل بين النص والقارئ – مرجع سابق ص10

[2] ابن رشيق القيرواني في محاسن الشعر وآدابه ص94–99

الذي هو غرة المحبوب إلى المعنوي غير المعلوم وغير المدرك وهو الصـــدود، ولا أتفق حقيقة مع هذا الرأي ؛ ذلك لكون الخيال ليس وســيلة تعليمية يقدمها الأديب لتبســيط معلومة لقارئه ، وإنما الخيال غاية جمالية يتفرد كل أديب من خلاله فيقدم عالمه الخاص ورؤيته تبعا لثقافته وتصـوره النفسـي ،وقد استخدم الشـاعر وسيلة لتحفيز ذهن المتلقي على التخيل ينتقيها بالشكل المناسـب له ، وقد نسـتحضـر اسـتخدام القرآن الكريم هذه الوسـيلة في أكثر من موضـع ؛ ففي وصـف طعام أهل النار (شـجرة الزقوم) فوصـفها بأن طلعها (كأنه رؤوس الشـياطين) الصـافات 65 فمن منا رأى الشياطين ليعرف شكل الشجرة ؟

ولكن الآية فيها تحفيز لذهن المسـتمع ليتصـور شـكل الشـجرة من حيث القبح والسـوء حينما اسـتحضـرت ذكر الشـياطين وتركت خيال المسـتمع ليكوِّن في مخيلته المعنى المقصـود . ونؤكد مرة أخرى على أن الخيال ليس من وظيفته الإفهام وكأن الأديب يحتل مكانـة المعلم فيبسِـــط المعرفة لطلابه، ولكن الخيال هو عمل من نســيج النص الأدبي بل إن الأديب كما لو كان يشـــكل العالم من خلال رؤيته ويشـــترك معه المتلقي ،ولذلك يتميز أديب عن آخر بجدة صوره وتفردها .

ونحن حين نتناول أدب الرافعي نجده كثيرا ما يلجأ لتشبيه المادي بالمعنوي ، ومن أمثلة ذلك قوله : (لاحت لي الأزهار كأنها ألفاظ حب رقيقة مغشّـاة باسـتعارات ومجازات)[1]، ولاشـك أن الأزهار أوضح

من ألفاظ الحب ، كما أنها رمز في ذاتها لكل جميل ،ولكن ما قام به أديبنا هو من باب" كسـر المعتاد" الذي يجعل القارئ يتوقف عند الصـورة فيتأملها من جديد ؛ كيف ربط بين الأزهار وقصـــيدة الحب الرقيقة ، وكذلك قوله :(لقد أحببت فتاة كأنها قصـــيدة غزلية في ديوان شـعر ، لا خطبة سياسية في حفلة ، فما ثم إلا معنى دقيق لطيف خلاب ساحر ، كل قولي له

[1] رسائل الأحزان في فلسفة الحب والجمال

:أريد أن أفهمك ، وكل قوله لي : تأمل تفهم)[1] فقد استقى تشبيهه هنا من واقع اهتماماته ومن وحي عالمه [2]، وكأنه يحدثنا عن الأنواع الأدبية ،في حين أنه يتحدث عن المحبوبة ، وهو يأخذ قارئه فيتصور معه الفرق بين صخب الخطبة السياسية التي تلقى في حفل ، إلى همس القصيدة الغزلية التي تنشد في قارئها التأمل والإصغاء والتجاوب الرقيق، والمفارقة طريفة وهي من وحي عالم الأديب ، الذي يعرف جيدا الفرق بين الخطبة السياسية والقصيدة الغزلية فالخطبة السياسية تمتلئ بالبراهين العقلية ، والحجج والمعارضات ، والصوت المرتفع في حضور جمع كبير، في حين تنساب القصيدة الغزلية ناعمة هادئة ، تخاطب العاطفة تهمس دون براهين ولا حجج منطقية .

أما إذا شبه المعنوي بالحسي – وذلك المعتاد – فإنه كان ينمي الصورة الحسية وكأنما ينحت فيها حتى لتكاد تنطق بأنها المثال المقصود (يوازن بين صور الطبيعة بعضها وبعض وينظمها في سلك واحد ويأتي بالمفارقات التي تبهر العقول ولا تتأتى إلا لصاحب الخيال الشرود ، ومن تحسبه قد وضع الأشكال والمعاني بين يديه يؤلف منها ما يشاء وينتقي منها ما يشتهي [3])

ولنتأمل الصورة التالية التي يصف فيها ناديا يجتمع فيه المحبون، فيراه بيتا، وقد لا نرى ملامح اتفاق بين المكانين، ولكنه ظل يفصِّل الصورة حتى بدت في النهاية كما يريدها الأديب:

(تجد في أطراف النادي أشجارا متعانقة كل لفيف فيها يبني بيتا أخضر ستائره من الأغصان المتدلية ، وجدرانه من الفروع المعروشة ، وكأنما زُخرف وطلي وفضض وذهِّب بألوان

---

[1] رسائل الأحزان ص47

[2] د. لمياء عبد الحميد القاضي مرجعية الصورة في شعر الطبيعة مكتبة الآداب –القاهرة في الحديث عن تأثير البيئة والزمن على تكوين الصورة من ص 43–48

[3] د. عمر الدسوقي – خيال الرافعي – الرسالة عدد514 43

الظل والماء والسماء وما يستحب منها)[1] فقد وثق الصلة بين الأشجار والبيت بوجود الستائر والجدران المتأنقة تنتشر في الصورة حتى اقتربت صورة الأشجار من صورة البيت المريح لقاطنيه .فهو كمن ينحت في الصورة المنتقاة فيصنع منطقة مشتركة بينها والمعنى المختار حتى ليشعر القارئ بأن هناك تشابها حقيقيا بينهما .

ثانيا أ 2 -المفارقة في القصص:

وقد نجد قصصا كاملة قامت على عنصر المفارقة ونضرب مثالا بالقصة التالية التي استخدم لها عنوانا دالا على هذه المفارقة ، كما استخدم اللغة الوصفية والحوار أيضا ليوضح من خلالها جميعا التباين بين الأفكار في خاطرة قصصية أطلق عليها (في اللهب ولا تحترق)[2]: (أفي الممكن هذا؟ لعوب حسنة الدل مفاكهة مداعبة تحيي ليلها راقصة مغنية حتى إذا اعتدل الليل ليمضي وانتبه الفجر ليقبل انكفأت إلى دارها فنضت وشيها، وخرجت من زينتها وخلعت روحا ولبست روحا وقالت لبيك اللهم لبيك، ثم ذهبت فتوضأت وأفاضت النور عليها وقامت بين يدي ربها تصلي؟)

فقد بدأ بالعنوان وهو من البداية يحمل هذه المفارقة ، ثم بالأسلوب الاستفهامي الذي يُطرح على القارئ جامعا المتناقضات، ثم تأتي كل فقرة لتأكيد هذه التناقضات من خلال الوصف الذي يتقنه أديبنا ، وأيضا من خلال الحوار الذي يتيح له كشف طبيعة الشخصيات المتحاورة ، وصفها بالعبارات التالية :

-هي حسناء فاتنة لو سطع نور القمر من شيء في الأرض لسطع من وجهها.

- كأن الليل والنهار في قلبها، فهي تبعث للقلوب ما شاءت ضوءا وظلمة.

[1] رسائل الأحزان 135

[2] في اللهب ولا تحترق وحي القلم ج 1 ص303

– هي إلى القِصر، غير أنك إذا تأملت جمالها وتمامها حسبتها طالت لساعتها، وإلى النحافة غير أنك تنظر فإذا هي رابية كأن بعضها كان مختبئا في بعض .

قد يتوقف القارئ عند كل وصف مما سبق بالتأمل لطرافته، ولا نملك إلا أن نبتسم لطرافة الصورة التي تجعلنا نقف أمام القِصر والطول في آن واحد وكأن بعضها مختبئ في بعض ، وتأتي المفارقة من الوجه الآخر للصورة حين يرسم للراقصة شخصية أخرى :

(ففي وجهها دائما علامة وقار عابسة تقول للناس: افهموني)، (لما رأيتها شهد قلبي بأن على وجهها مع نور الجمال نور الوضوء وأنها محترزة في حصن من قلبها المؤمن يبسط الأمن والسلامة على ظاهرها) [1]ثم يدور حوار بينهما تؤكد فيه أنها تمارس عملا لا تتقن غيره وأنها من أصل طيب ، ويظل الحوار بينهما على هذا النحو ، حيث تبدي مبرراتها ، ويبدي تعجبه ، لكن دون نزعة خطابية ولا وعظيه ، لكن ينتهي الحوار بتعليق من الأديب :(تلك هي الياقوتة التي تُرمى في النار ولا تحترق).. (أفي المترادف شرعا: رقصت وصلَت ؟)[2]

ثانيا :ب– 1–مخاطبة القارئ :

سنجد كثيرا مما كتبه الرافعي قد وجهه لقارئ مفترض يخاطبه بشكل مباشر، أو أن يعتبر مكانته أثناء الكتابة خاصة فيما كتبه من أشكال قصصية، وقد يكون السبب في ذلك أن كثيرا مما كتبه قد نشر في الصحف، فكان حديثه بالفعل موجها للقارئ ، وأن بعضا منه قد كتب في شكل رسائل ، كانت موجهة لمحبوبة حقيقية ونشرت الرسائل بعنوان (رسائل الأحزان) ، وحين نطالع الكتاب فكأنما سطوره موجهة لمن يقرأ ، من ذلك :(فسآتيك في رسائلي بالكلام الصحيح، والكلام المريض، ويتشعب عليك من خبري أمور وأمور، فلا تحاول أن تهتك سر هذا

[1] في اللهيب ولا تحترق 304

[2] نفسه ص 304، 308

القلب) [1] فالقارئ هنا من صلب العمل الأدبي نفسه ، حتى لو كان الخطاب موجها في البداية لقارئة يخصها الكاتب بالحديث، فقد أصبح الكتاب حينما نشر موجها لكل القراء ،ويحرص الرافعي على مخاطبة القارئ في كل كتاباته وهو ما يعد تحفيزا لقارئه على المشاركة في الأفكار [2]، أو إعداده ليكون رفيقا للكاتب أثناء الكتابة ، ويتكرر حديث الأديب للقارئ في مواضع مختلفة وفي كتابات متعددة ، فمثلا في كتاب المساكين : (وأنت ربما رأيت الرجل من الناس وبه جمال الدنيا.. وعليه من نضرة الحياة ألوان الجنة والنار.. وما تشك أنه واسع البسطة عريض النعمة طيب المكسبة، وهو على ذلك رقعة خلقة في أذيال الفقر يجررها على أقذار الحياة وأدناسها ولو نطق له الغنى لقال دعني، فما كل ذي متربة فقير ، ولا كل ذي مثراة غني) [3] فهو يستخدم الضمير " أنت" متحدثا لقارئ مفترض أو صديق متخيل ، ويتحدث حديثا هامسا فيبين كيف تكون النوازع الإنسانية الممقوتة من كره وبخل وعداوة شكلا من أشكال الفقر النفسي ، وحين تحدث عن الفقر رأى أن الفقر لم يكن إلا حينما أحس الإنسان بالنعمة واعتاد عليها، حتى إذا قلت افتقدها وشعر بالفقر:(ولقد كان الفقر عريان يوم أن كان آدم في الأرض ليس عليه إلا ما خصف من ورق الجنة وعاش دهرا تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب..) (الفقر على ذلك هو العوز)[4] وأشكال العوز مختلفة منها المعنوي النفسي، ومنها المادي.ونجد أديبنا يحدث قارئه في مواضع مختلفة على مر تاريخه الأدبي :

- (سر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التي تجعل الأحسن أحسن مما يكون)
- (إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور)

---

[1] رسائل الأحزان 33

[2] د. نصيرة زوزو مخاطبة القارئ في النصوص الأدبية مجلة المَخبَر 529عام 2016 عدد 12

[3] الرافعي كتاب المساكين ص 6

[4] نفسه ص9

- (إذا كنت في أيام الطبيعة فاجعل فكرك خاليا)[1]

فهو يخاطب القارئ محاورا إياه يتحدث إليه ويضعه في الحسبان بالحجة وضرب المثل، ويستخدم الخيال في سبيل إقناع قارئه، وقد ينحو إلى المبالغة أحيانا.

ثانيا –ب 2–القارئ في الكتابات القصصية:

أما فيما كتبه الرافعي من كتابات قصصية فنحن نجد القارئ حاضرا أيضا خاصة في النهايات، أو في لغة الراوي التي هي لغة المؤلف ، حيث توجه اللغة قارئها لتبني وجهة نظر الأديب ؛فعلى سبيل المثال، وقد توقفت الصفحات عند خاطرته " في النار ولا تحترق " رأينا أن النهاية قد ختمت بطرح سؤال ولم يكن في القصة نهاية واضحة ، وكأنه بهذا السؤال يحفز قارئه ليتبنى موقفا من قضية قد طرحها الأديب من خلال القصة ، وكذلك الحال في قصة كتبها بعنوان " أحلام القصر " :

يتحدث فيها عن فتى من الوجهاء يختال على الناس بأنه حفيد أحد الأمراء ، ويجيد الأديب في وصفه ،وأجاد في رسم صورة استعلائه على الناس وأيضا صوَر سوء سلوكه فوصفه بأنه وثيق الصلة بالشيطان : (أما الشيطان فكان له عمل خاص في خدمة هذا الشاب كعمل خازن الثياب لسيده ؛غير أنه لا يلبسه ثيابا ، بل أفكارا)[2]وظلت القصة تعرض صور استعلاء الشاب على الناس حتى حدث تحول كبير في سير الأحداث حينما أساء الفتى لأحد الفقراء المساكين الذي سأله عونا فزجره وسخر منه ، ثم نام فرأى حلما وكأنه نذير يطلع القارئ عليه ، ويدخل لعالم اللاوعي للفتى ‘ في الحلم يجد الشاب نفسه مهانا وقد ذهبت ثروته عنه ، ونرى صورا معاكسة لصور الثراء والتكبر التي رسمت في بداية القصة ، فهو طريد مشرد يبحث

[1] مقتطفات من وحي القلم 46 ، 53

[2] وحي القلم أحلام في القصر ص 81

عمن يعوله ، ويســـمع في الحلم من يقول له (إن الأقدار لا تدلل أحدا ؛لا ملكا ولا ابن ملك ،ومتى صرتم جميعا في التراب ،فليس في التراب عظم يقول لعظم آخر: أيها الأمير ..) ، وفي حلمه أيضا يتعرض لإحدى البائعات وقد صار رث الثياب ، فتستعدي عليه المارة الذين أوســـعوه ضـــربا وأهين حتى وقع مغشـــيا عليه ، وتنتهي القصـــة بأن يوجه الأديب عدة أســـئلة:(ياليت من يدري بعد هذا أغدا ابنُ الأمير على المســـجد وأقبل على الفقراء ؟ ياليت من يدري ، فإن الكتاب الذي نقلنا القصـة عنه لم يذكر عن هذا شيئا ، بل قطع الخبر عندما انقطع الصـفع ..)[1] فقد أدخل الأديب القارئ في العالم النفسـي للشـخصـية من خلال الحلم الذي غير من طبيعة الأحداث وتبدل فيه حال ابن الأمير ليصير صعلوكا مشردا ، ثم ترك النهاية مفتوحة حينما طرح الأســـئلة على القارئ ،ولم يجب على أي منها ، بحجة أنه ناقل عن كتاب لم يذكر ماذا فعل الشـــاب ، وســـنجد في القصـــة فراغات كثيرة في طريقة كتابة القصـــة حيث فيها نقاط (....)، كما لو كانت توجه القارئ لاســـتنتاج بقية الأحداث ، و هناك أيضـــا أحداث لم يذكرها المؤلف ويفهمها القارئ أو يســـتنتجها[2] وأرى أن أغلب القصـــص أو الأشـــكال القصـــصـــية التي كتبها الرافعي وإن كانت ليست قصصا مكتملة إلا أنها تجعل للقارئ دورا مهما في القصة.

ثانيا :ج –الحجة العقلية والقارئ :

تتضـح في كتابات الرافعي امتلاكه وسـائل الحجاج من أسـلوب فصـيح ، وتدرج منطقي للأفكار وقدرة على طرح أفكاره ، إضـافة لقدرته على أن يسـوق الحجة والبرهان ، وقد يكون ذلك واضـــحا جليا حينما نتناول ما كتبه الرافعي ردا على كل من د. طه حســـين ، وكذلك الأســـتاذ العقاد أو في كتاباته التي تتناول قضـايا علمية سنجد أنه استخدم الحجج العقلية ، كما استخدم الخيال ، وهو ما يأخذنا للقضـــية القديمة فيما يخص " التخييل " الذي هو قوام الشـــعر ، و"

[1] المصدر نفسه 85

[2] انظر التفاعل بين النص والقارئ مرجع سابق ص 10 حيث يتناول الطرق المختلفة في مخاطبة القارئ

والإقناع " الذي هو قوام الخطابة والفن النثري وأرى أن الرافعي تجتمع فيه الصـــفتان " التخييل والإقناع حيث يمتزج في نثره الخيال الشعري بالجانب العقلي ، كما يمتزج في شعره –القليل – كل من الحكمة والتحليل العقلي بالخيال والعاطفة . ويؤكد ذلك وقوفنا على أســلوب الرافعي في النثر في مجال التأليف المنهجي الذي يتطلب من مؤلفه الاتجاه نحو أســلوب علمي يبتعد عن الخيال ،ومثالنا من فقرة من حديثه عن الإعجاز في القرآن الكريم حيث نجد امتزاج فصـــاحة الأسلوب بصفاء الخيال :

(ألفاظ إذا اشـــتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها ،وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضـــحك في وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألســـنة ترعد من حُمَّى القلوب.) ويكمل :(وإذا هي السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها ، واستأذنت في صدمة الفزع ربها ، فكادت ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ، وإنما هي زجرة واحدة، فإذا الخلق طعام الفناء وإذا الأرض "مائدة ")[1] فهو في النص الأول يصـــف ما تحدثه كلمات القرآن الكريم من تأثير بين الشدة واللين ،واستخدم في سبيل ذلك الخيال والسجع وحسن التقسيم الموسيقي ، وقد تأثر أسلوبه بشكل واضح بالأسلوب القرآني ، وفي النص الثاني يأخذنا لاستعداد الأرض في وجف لاستقبال يوم القيامة ، وقد امتزج الخيال بالفلسفة وقوة المنطق ، ويستوقفنا أن كلا من كتابي "تاريخ آداب العرب " وإعجاز القرآن الكريم " هما بحثان رصينان قصد بهما التأريخ بقلم عربي لتاريخ الأدب العربي ، وأيضا لتوضيح جوانب الإعجاز في لغة القرآن الكريم ، وهو يستخدم الأسلوب الأدبي الذي يوحى بأفكاره وينتقل بشكل علمي لتفصيل منهجه في التناول والبرهنة على قضيته التي خصص لها كتابيه فيقول : " فإنا سنقول في القرآن الكريم مما يتعلق بلغته،

[1] الرافعي إعجاز القرآن ص10،11

ويتصل ببلاغته .."[1]، وقد أشاد بالكتابين معاصروه ومنهم د. طه حسين نفسه وكان بينهما من المساجلات والخصومة ما بينهما ، وكان ممن أشادوا بالكتابين أيضا من هم من غير المسلمين مثل الأمير شكيب أرسلان [2]

وإذا توقفنا عند كتاباته التي يعارض فيها معاصريه سنجده يستخدم الخيال والحجة العقلية ممتزجين أيضا ، ويزيد من استخدام أدوات الحجاج من الإتيان بالبراهين وضرب الأمثلة والتحليل ،فهو في الفقرة التالية يهاجم د. طه حسين ردا على كتابه " في الشعر الجاهلي" فيهاجمه ويتهم كل من ينال من الأمة العربية فيقول :إنك إن فتشت في أقوالهم فلن تجد إلا مصالحهم وذواتهم " يريدون أن يبتلوا الناس في دينهم وأخلاقهم كالمسلول يصافحك ليبلغك تحيته وسلامه فلا يبلغك إلا مرضه وأسباب موته "[3]، ولم يخل حديثه من الخيال واستخدام الصورة ، وهو هنا في مجال حجاجي حيث تلعب الصورة دورا في تهيئة القارئ ليتبني وجهة نظر الكاتب .وفي الصورة التي رسمها هنا نجده يصف معارضه "بالمسلول " الذي يمد يده بالمصافحة فإذا به ينشر المرض في الوقت الذي يرغب فيه أن ينشر سلاما ومودة ،وقد تكون الصورة عدوانية خاصة وأنه يتناول فكرا يمكن أن يتناوله بشكل موضوعي هادئ ، ولكنه كان حادا حينما يدافع عن قضايا الدين واللغة ، وقد يكون أقل حدة في حديثه عن د. طه حسين مقارنة برده على الأستاذ العقاد .

يتحدث عن د. طه حسين فيقول :"ولقد يقتلع المرء جبلا من الأرض يمتلخه من عروقه فيفرغ منه ولا يقتلع غلطة من نفس طه وإن شهد الملأ من الناس على "أنها غلطة وعلى أنه لا

---

[1] نفسه

[2] د. مصطفى الشكعة الرافعي وإعجاز القرآن الكريم36الهيئة المصرية العامة للكتاب 2004القاهرة ص 47

[3] مصطفى صادق الرافعي تحت راية القرآن المكتبة االإيمان ط1 1996 ص3

يقوم لـه فيها عذر"[1]ويكمل فيقول إنـه حين لا يجد ردا يقول :لا أريد أن أقتنع ، فيرد الرافعي موجها حديثه للقارئ : " وانظر أنت أي رأي يســـتقيم في هذه الدنيا مع (لا أريد أن أقتنع)وهي كلمة تأكل الأدلة والبراهين كما تأكل النار الحطب كلما ازدادت من الأكل ازدادت من الجوع "

فهو هنا كمن يستقوي بالقارئ ويجعله حكما بين خصمين ، حيث وقف المنطق أمام رد خصمه بأنه لا يريد أن يقتنع مع وجود الحجج والبراهين ،كما استعان أيضا بصورة الجبل الذي انتهى من(امتلاخه) من جذوره وعجزه أمام إقناع خصـــمه بخطئه ،وكذلك صـــورة النار النهمة التي تزداد جوعا وشـــراها كلما أكلت من الأدلة والبراهين ،فهو يحاول أن يســـتميل قارئه لإقناعه بسلامة موقفه ، وقد يكون حادا أحيانا

ويبرر د. مصطفى الشكعة[2] هذه الحدة بقوله عن الرافعي إنه لم يكن عدوانيا بطبعه ، ولا متجاوزا حدود المألوف إلا في حالتين ؛الأولى إذا تعرض كاتب للفصـــحى ، والثانية إذا اعتدى صاحب قلم على الإسلام عقيدة ورسالة وقرآنا.

وفي مقام رده على الأستاذ العقاد في كتاب " على السفود "–وقد ألفه ولم يكتب اسمه في البداية، ولكن كتب مكان اســم المؤلف :(بقلم إمام من أئمة الأدب العربي)، كما كتب على الغلاف:

وللسَّفُـود نارٌ لو تلقَّـت	بجاحِمها* حديداً ظُن شحماَ
وَيشوي الصخرَ يتركه رماداً	فكيف وقد رميتُك فيه لحما؟

ثم شرح معنى كلمة السفود في بداية الكتاب فقال:(السفود في اللغة: الحديدة يشوى بها اللحم ويسميها العامة السيخ) والمعنى أنه في مساجلته مع الأستاذ العقاد سيقوم بشيه في هذه

[1] تحت راية القرآن ص258

[2] د. مصطفى الشكعة المرجع السابق ص 19

*بجاحمها من الجحيم

النار شديدة القسوة التي لو ألقي الحديد فيها لخاله المشاهد شحما، ويتحول فيها الصخر رمادا ، وذلك ردا على مقال كتبه العقاد وقدم به الرافعي كتابه "على السفود "، حيث قال العقاد إن من يدَعون الثقافة والأدب لا حل لهم إلا أن يحرقوا في النار (فما يبتلى بالألم أحد في هذه الأرض هو أولى به من أمثال هؤلاء)[1] وفي البيتين توعد وتحفيز لفضول القارئ وكأنه يستعد لمعركة سيكون القارئ طرفا فيها بالمتابعة، والميل الفكري، وكأنما يجعل القارئ طرفا حينما أورد مقال العقاد ليقول إنه هو البادئ . وكذلك كان الحال حينما تناول كتاب " في الشعر الجاهلي " لدكتور طه حسين ، ولم يكن كل من د. طه حسين والأستاذ الرافعي هما طرفا المعركة منفردين فقد انضم لكل منهما أنصار وخصوم [2] فقد دخل معركة فكرية وهو يدرك أن له مناصرين كثيرين من القراء.

ونلاحظ أن كل كتابات الرافعي: النثرية منها والشعرية يمتزج فيها الوجداني بالعقلي والفلسفي، ولا يملك القارئ إلا أن يعجب به ، وفي مجال حديثنا عن الرافعي وتوجيه حديثه للقارئ سنجد امتزاج الخيال والعاطفة بالحكمة في كثير مما يكتب ، ولنر الأبيات التالية بعنوان "حيلة مرآتها" وسنلاحظ أنه يصف حسن حبيبته، ولكنه يخرج من الوصف لحكمة عامة لا تخلو من فلسفة:

حسناء خالقها أتم جمالها سألته معجزة الهوى فأنالها
لما حباها الله جل جلاله بالحسن أجل جلالها
هيفاء قد حسب النسيم قوامها غصنا، فإن خطر النسيم أمالها
والعمر آمال، وما جلب الشقا إلا ابتغاءُ الطامعين مُحالها

[1] مقدمة كتاب على السفود –الرافعي

[2] انظر د. مصطفى الشكعة المرجع السابق ص 19 حديث عن المعارك الفكرية بين الرافعي وخصومه

إن الذي أعطى النفوس عقولها جعل القناعة للنفـوس عقالها[1]

نجد الأبيات في وصف المحبوبة وكيف أنها قد مُيزت بمعجزة تمام الجمال ، وأنها تقف مع الورود فتميل مع نسمات الهواء مثلما تميل أغصـان الورود إلى آخر وصـفه في المحبوبة ، ثم نرى البيتين الأخيرين فيهما حكمة عامة قد ترتبط ببقية الأبيات –مع التأويل ، فقد يكون المعنى أن نيل الود من هذه المحبوبة هو ضـرب من المحال ، وأن ما يجلب الشـقاء للإنسـان رغبته الدائمة في المحال ، وأن الإنسـان قد تميز بالعقل الذي يمكنه السـيطرة على ميل النفس وهواها ، فكأنه بالعقل يقنع بأن يبتعد عنها. فقد انتهت الأبيات بالحكمة وإن بدأت بالغزل وهو ما يؤكد النزعة العقلية المميزة لكتابات الرافعي بشكل عام . ويعلق د. سـعد مصـلوح على حالة مماثلة بقوله : (ما كان أي معيار نقدي مهما تكن حداثته وعصـــريته لتمنع القارئ المتذوق للشـــعر من الإعجاب بمثل هذه الأقوال الشـــعرية الحكيمة)[2] وذلك تعليقا على امتزاج الحكمة بشعر المتنبي.

وبعد، فقد كانت الصـفحات قراءة في أدب الرافعي وتوقفنا عند أهم سـمات الخيال فيما قدمه من كتابات فتناولت الصفحات المباحث التالية:

أولا –طبيعة الخيال عند الرافعي :

1– غلبة النزعة العقلية

2– تداعي المعاني

3– وضوح تأثير الثقافة الإسلامية

4– الخيال القصصي

[1] رسائل الأحزان 55– 57

[2] د. سعد مصلوح المرجع السابق ص 187

ثانيا القارئ في أدب الرافعي :

1-المفارقة في أدب الرافعي ، وقد تناولنا فيها تشبيه الحسي بالمعنوي على غير الشائع ، وأيضا المفارقة في نهايات الأشكال القصصية التي قدمها .

2-مخاطبة القارئ :والمقصود بذلك مخاطبة القارئ بشكل مباشر من خلال ضمير المخاطب ، أو وضعه في الحسبان في توجيهه ليتبنى رأيا محددا من خلال الحديث غير المباشر .

3- استخدام الحجة العقلية والقارئ : ويتضح ذلك فيما كتبه الرافعي من كتابات علمية يتبنى خلالها قضايا محددة ، ولا تخلو هذه الكتابات من خيال ، كما يبدو فيها مخاطبته للقارئ .

المصادر والمراجع

المصادر :

مصطفى صادق الرافعي:

1-كتاب المساكين القاهرة المكتبة الأزهرية1917

2على السفود القاهرة دار العصور للطبع والنشر 1930

3رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب تحقيق محمد سعيد العريان ط6 القاهرة طبعة دار الاستقامة 52

4إعجاز القرآن الكريم القاهرة مطبعة الأخبار دون ترقيم

5-تحت راية القرآن ط1 مكتبة الإيمان مصر 1996

6 وحي القلم مكتبة فياض مصر ط1 2013

مراجع عربية حديثة :

1- جابر عصفور 2002 قراءة النقد الأدبي ط1 القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة

2- حامد عبد القادر 1949 دراســـات في علم النفس الأدبي ط2- القاهرة -المطبعة النموذجية

3- سعد عبد العزيز مصلوح 2010 حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر – القاهرة عالم الكتب

4- شوقي ضيف79 الأدب العربي المعاصر في مصر ط2 دار المعارف القاهرة

5- عاطف جودة نصـر: 1984الخيال مفهوماته ووظائفه – دراسـات أدبية الهيئة المصـرية العامة للكتاب القاهرة

6- عبد الحميد شـيحة مع فريق عمل : 99 موسـوعة الأدب والنقد -مترجم عن فريق عمل القاهرة المجلس الأعلى للثقافة

7- لمياء عبد الحميد القاضـي: 2012مرجعية الصـورة في شـعر الطبيعة مكتبة الآداب القاهرة

8- محمد سـعيد العريان 2004 حياة الرافعي الهيئة العامة لقصـور الثقافة ط2/ القاهرة سلسلة ذاكرة الكتابة ع 54

9- محمد غنيمي هلال79 النقد الأدبي الحديث القاهرة نهضة مصر

10-مصطفى الشكعة 2004 الرافعي وإعجاز القرآن الكريم القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة

11-نعمات أحمد فؤاد 63 دراسة في أدب الرافعي ط 1 دار الفكر العربي القاهرة

مراجع عربية قديمة :

1-حازم القرطاجني 66 منهاج البلغاء وسراج الأدباء ت محمد الحبيب بن الخوجة تونس

2-ابن رشيق القيرواني 1907 العمدة في صناعة الشعر ونقده القاهرة ط1

دوريات:

1-الجيلاني الكدية 92/12 ترجمة عن فولفانج أيزر في نظرية التلقي -التفاعل بين النص والقارئ – مجلة دراسات أدبية لسانية عدد رقم 7 / ديسمبر 92

2-عمر الدسوقي: 43 خيال الرافعي الرسالة ع 514

3- نصيرة زوزو 2016 مخاطبة القارئ في النصوص الإبداعية -روايات الأعرج

Abstract:

The research bases its study on two axes, the first of which discusses the characteristics of Al-Rafiee's imagination in the following points:

1. **The obvious mix between imagination and sound logic, this is seen through the writer's articles, reflections and any of his writings, in addition to his choice of articles**
2. **the clear influences of the Islamic culture**

The second axes address the reader's role in the Al-Rafiee's literature:

1. using irony, which means surprising the reader with unusual choice of language tools.

2. Directly addressing the reader especially that many of his writings were published in newspapers at the first either by _directly addressing the reader_ or indirectly by persuading the reader with a specific opinion or point of view

3. Using logical _points_ mixes with imagination.

Descriptors: Al-Rafiee- Imagination -Irony -Islamic Culture -Reader

Fiction in Mostafa S.Al Rafiee's literature

By

Dr, Azza Abdull lateef Amer

Associate Professor - Beni Suef University

Arabic Department